

من القرآن ما يفسره الزمان



إنّ القرآن الكريم هو كتاب هداية إلى الطريق الصحيح طريق الله سبحانه وتعالى، وهو ليس من صنع بشر، وغرضه الرئيسي ومهمته الأساسية هي تصحيح الاعتقاد بالله سبحانه، وتوحيده وعبادته دون غيره، ولكنّه لم يغفل أن يشير إلى الآيات والبيانات العلمية التي ستحدث فيما بعد، حيث حدّثنا القرآن عن كثير من الغيبات، والآيات الباهرات التي لا يمكن للبشر أن يعرفها لولا أنّ الله سبحانه قد مَنَّ بها علينا، وخاصّة في زمان نزول القرآن فقد أمر القرآن الإنسان أن ينظر إلى ملكوت السماوات والأرض ويتطلّع إلى الكون بتفكّر وتدبّر، وبذلك يصل إلى درجة اليقين بوجود المبدع الحكيم بقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَاكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّاهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَفَقْدَرُ اقْتِرَابَ أَجَلَهُمْ فَبَدَأَ بِحَدِيثِ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف/ 185).

ولكن الدعوة إلى التطلّع في الكون والتأمّل وإعمال الفكر والاستنباط قد وضعت الأساس للمنهج

التجريبي فكان من ثمرتها أن حفزت الهمم وشجعت العقول لبناء صرح حضارة عالمية مازالت مفردات مصطلحاتها مستعملة إلى اليوم في العلوم كالفلك والجبر والكيمياء في الوقت الذي كانت أوروبا تتخبط فيه في ظلمات الجهل والوهم.

ولم تكن البيئة التي نزل فيها الوحي مهياً لتلقي حقائق لم تتحقق منها البشرية إلا بعد عصر التنزيل بقرون، ولذا كانت الإشارات العلمية في الحديث النبوي محدودة بينما فاض بها القرآن الكريم، وادخرت تلك الإشارات العلمية لأجيال قادمة تعين حقائقها بينة على الوحي وتأييداً لرسالة التوحيد، وقد شفعت بوعد جازم نراه يتحقق اليوم، كما في قوله تعالى: (سَنُزِّلُ بِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّيِّبُ لَهُمُ الْزُّهْدَ الْحَقِّ وَالْوَلَامَ يَكْفُرُ بِرَبِّكَ أَلَمْ نَعْلَمْ كُلَّ شَيْءٍ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (فصلت/ 53)، نادى الرؤية للمؤمنين وإلى غيرهم يعني أن الوعد متحقق سواء اكتشفوا هم الحقيقة أم سبقهم إليها غيرهم، فلا مجال إذن للسؤال الذي يخلط بين التدليل على التنزيل عند تجلي الحقيقة والتبشير بها قبل اكتشافها في الواقع: لماذا ينتظر المسلمون غيرهم ليكتشفوا هم الحقائق العلمية ثم يدركون إشارة نصوص الوحي إليها بعد ذلك؟، ومع ذلك يمكن استلهام النصوص والاسترشاد بقواطع الدلالات لتبشير بالحقيقة التي لم يقم عليها دليل بعد.

وسأحقق رغبتك في السبق التقني بمثال؛ في الوقت الذي نبحث فيه في أيام الشتاء عن وقود التدفئة يفيض القرآن بالحديث عن حقيقة جودنا فوق قشرة رقيقة عائمة فوق دوامات جبارة من الصهير الملتهب ومخزون لا ينضب من الطاقة تحت أقدامنا مباشرة، ألا ترى أن مشكلة الطاقة في العالم قد حُلّت بشكل جذرياً؛ يمكن بلوغ الآتون الملتهب بأنبوب معدني ممتلئ بالماء في مناطق ذات عمق يسير كما في منطقة المدينة المنورة وتحويله إلى بخار يمكن إنتاج كهرباء مجاناً تصلح للتخزين وتكفي لتحويل جزيرة العرب إلى جنة خضراء، ولكن إن صح هذا فهو استلهام وسيبقى الدليل على التنزيل هو سبق القرآن إلى الحقيقة قبل تجليها عند اكتشافها؛ على الأقل هذا ما أراه.

ومن الإشارات إلى معالم عصر التقنية التبشير بوسائل نقل تماثل الدواب المعتاد استخدامها زمن التنزيل، وذلك في قوله تعالى: (وَالْأَنْعَامَ خَلَّاقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْدَاقٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جِمَالٌ حِينَ تُرِيدُونَ وَحِينَ تَسِرُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْبِ إِلَّا بِسُقُ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ

شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) (النحل/ 9-5)، فالشاهد قوله (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)، وذلك في معرض الحديث عن وسائل نقل معتادة (والخَيْلَ والبِغَالَ والحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا)، وفعل (يَخْلُقُ) مضارع يدل على التجدد مما لا يجعل حدًّا لما ستكشفه الأيام من وسائل نقل، ولكن عندما تسترخي على كرسيك اليوم في سيارة أو باخرة أو طائرة تذكر أنك تجلس فوق دليل يشهد للقرآن بالوحي.

قال علماء التفسير: (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) أي أن هناك أشياء ستخلق لا تعرفون عنها الآن شيئاً كالسيارة والطيارة والغواصة وذلك مما سوف تبتدعه العقول والعلم الحديث.

ولنتأمّل قوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لِتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ * وَمَا لَهُمْ لَآ يُوْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ) (الإنشفاق/ 21-16)، إن تلك الظواهر الليلية معاينة معهودة؛ الشفق فبزوغ الأجرام فالبدر أنصع أحوال بهاء القمر، وتستشعر مع تتابع تلك الظواهر حركة دلّ عليها الترتيب، فالشفق عند غروب الشمس وعندما يجنّ الليل ترى الأجرام تملأ صفحة الليل قبل أن يلفتك عنها بهاء القمر، ولكن ماذا يعقب الليل؟ إنّها الشمس ساطعةً أبهى من القمر؛ هكذا إذن ستتجلى حقيقة يؤكدّها القرآن في تشبيه ضمني بالشمس في وضح النهار: (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)، و(الركوب) يلزمه الحمل والسفر والانتقال والهجرة كما في قوله تعالى: (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا) (النحل/ 8)، وقوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْذُلُوهَا عَلَيْهِمْ حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) (غافر/ 80-79).

والمذهل أن الشكل المستدير المماثل للطبق هو فعلاً الذي يحقق الاستقرار في الفضاء حيث تنعدم الجاذبية فيمكن استعادتها بالتدوير، وتصميم أوّل مدينة فضائية بهيئة طبق يدور؛ مساكنه ومزارعه في الأطراف وأبوابه يترقى إليها نحو السقف المحمي من الوهج بأغطية معدنية، وينعم سكّانه بالرفاهية بدون منغصات كالزلازل والقوارض والأوبئة.

تريد أن تعترض، فهذا ما أردت أن أبلغه معك؛ أكتفّر إذن بمعاينة دلائل الوحي التي تحققت في زمانك ودع القادمين يعاينون ما لم تكشفه الأيام لأحد بعد، أم ترغب في التمتع بعجيبه أذهلت أساطين البيان وأخذت بألباب المتأملين على مرّ الزمان، فاطلق لخيالك إذن العنان ليتصوّر عالماً من الرفاهية

والزخرف لا تحتمله الأرض وهو أشبه أن يتحقق في مدن الفضاء وأنصت لقول العليّ القدير: (أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُذِيئُوهُمْ سُقْفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيَّهَا يَطَّهَّرُونَ * وَلِيُذِيئُوهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيَّهَا يَتَّكِفُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) (الزخرف/ 32-35)، والأثر على إثر القرآن الكريم، فقد جاء الخبر مبشراً بحضارة فضائية وانتشار الإسلام حتى يبلغ أجرام السماء؛ فعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: "والذي نفسي بيده لا تذهب الأيام والليالي حتى يبلغ هذا الدين مبلغ هذا النجم".

ويفيض القرآن بمثل هذا التبشير الذي تحقق منه إلى يوم كثير فأصبح بينة على التنزيل؛ في قوله تعالى: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْزَلْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَادِرُونَ بِإِذْنِكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَيَّ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ) (الواقعة/ 58-61)، ماذا يعني التبشير بتقنية تخليق الإنسان من المني أو بدونه في ظروف غير معهودة بطريقة غير مسبوقه وإنشاء أجيال مبدلة ذات صفات مغايرة وإن ماثلت البشر المعهودين؟، لا تستغرب السؤال المتسم بالخيال الجامح متأثراً بالثورة العلمية التي نعيشها اليوم في مجال الوراثة واستبدال الصفات بأفضل منها وأبحاث تخليق الإنسان، ألم أقل لك سابقاً أن هناك فارق بين الإشارة العلمية التي تحققت بالفعل واستقر معناها بشهادة الواقع وبين الخيال المنطلق الذي لم يقم عليه دليل بعد!.

والحديث في كتاب الله عن الحضارات التي سادت على الأرض وبادت قبل نزوله ورد بصيغة الغيبة في قوله تعالى: (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ) (هود/ 20)، ولم يتواجد أحد منهم بالفعل قبل عصر الفضاء إلا في الأرض، ولكن مع الالتفات نحو حضارات المستقبل المخاطبين بالقرآن إلى قيام الساعة لم يُحصر تواجدهم في الأرض؛ قال تعالى: (وَمَا أَنْزَلْنَا بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) (العنكبوت/ 22)، وتلك الإضافة المبهرة المميزة لحضارات المستقبل (ولا في السماء) قد كشفت معناها الثورة العلمية المحمومة التي نعيشها اليوم في عصر الفضاء لتشهد بأن هذا القرآن وحي من عند رب الأرض والسماء؛ وإلا من أين لمحمد منذ قرون وهو الأُمِّي في أُمَّة أُمِّيَّة هذا النبأ قبل عصر الفضاء!، هكذا تنجلي اليوم وتشع بأنوار اليقين بينات القرآن الكريم، يقول العلي القدير: (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيَّكُمْ بِوَكِيلٍ * وَالزُّبُرُ وَاللَّيَالِي تُتَّبَعُونَ بِهَا وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يُخَوِّضُ فِيهِ رُوحَهُ الْقُدُّوسَ أَلَمْ تَعْلَمُونَ) (الزخرف/ 17-19)، والحق أن هذا القرآن هو الذي يفتح لنا آفاقاً جديدة في فهمنا للكون والوجود.

لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (الأنعام / 66-67).